**ندوة حول كتاب**

**تاريخ لبنان الاجتماعي المعاصر**

**(خارج القيد الطائفي)**

**المؤلف**

**د. مسعود ضاهر**

**مداخلة**

**العميد الدكتور كميل حبيب**

**الزمان : 2 حزيران 2023**

**المكان: المدرسة الوطنية الأرثوذكسية- قاعة المحاضرات**

**Camille\_habib@hotmail.com**

في كل مرة أشارك فيها في قراءة كتاب، يعاجلني بعض الحضور بالسؤال التالي: ولماذا نقتني الكتاب وقد قرأته لنا؟. لذلك، آثرت في هذه الندوة ان أتحدّث القليل عن المؤلَف والكثير عن المؤلِف.

تعرفّت الى د. مسعود ضاهر دون ان أراه، وذلك من خلال كتابيه:

1. لبنان: الاستقلال والميثاق والصيغة؛
2. والجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية: 1697-1861.

كان ذلك عام 1987 عندما كنت أعدّ اطروحة الدكتوراه في جامعة Dalhousie في كندا فقدرّت فيه قراءته الجديدة لتاريخ لبنان، ووضوح الرؤية عنده، وخطابه النقدي من دون محاباة او مباركة من سلطان جائر او صاحب نفوذ مستزلم.

بعد عودتي النهائية الى لبنان صيف 1994، لبيّت دعوة النادي الثقافي الرياضي في بلدة الشيخ طابا لحضور محاضرة للدكتور ضاهر. وعلى ما أذكر، تناول المحاضر السياسة الاقتصادية المعتمدة من قبل حكومة الميليشيات. في تلك المرحلة السوداء من تاريخ لبنان لجأت الميليشيات الى الدولة لنهب المال العام بعد توقف السفارات عن دفع ثمن السلاح لعملاءها المحليين.

بعد ذلك كنا نلتقي من حين لآخر في رحاب الجامعة اللبنانية، الحاضنة الأكبر للحركة الثقافية خارج النطاق الرسمي. ويقول د. ضاهر في هذا المضمار: بأن الجامعة الوطنية **"قادرة على النهوض بدور ايجابي لمصلحة تطور المجتمع اللبناني اذا ما توفرت لها الاعتمادات اللازمة والدعم الكافي من اجهزة الدولة والمجتمع".** وفي رأيي، لو قدّر للجامعة اللبنانية ان تصبح جامعة منتجة لأمكنها قطع صلاتها بنظام المحاصصة الطوائفي. ومن المنظور التاريخي، يرى د. ضاهر ان صراع الجامعة اللبنانية "**مرتبط أشد الارتباط بصراع الوحدة والتجزأة داخل المجتمع اللبناني الحديث والمعاصر".**

إن الوفاء يقضي ان أشير الى ان د. ضاهر هو من وطّد وعزز العلاقات الثقافية بين لبنان وجمهورية الصين الشعبية بصفته افضل رئيس رابطة صداقة بين الشعب الصيني والدول الاجنبية. فكان له الفضل في تأسيس مركز كونفوشيوس في كلية الآداب، وفي تصويب الاداء والمسار عندما أسسنا ماستر الدراسات الصينية في كلية الحقوق والعلوم السياسية والادارية. نحن امام هامة ثقافية عز نظيرها في تاريخ لبنان الثقافي المعاصر. ولمن لا يعلم، د. ضاهر هو من أطلق على سلام الراسي لقب **"شيخ الادب الشعبي".** وانا اليوم اسميه **"فتى المؤرخين العرب".**

**السيدات والسادة**

على مرّ الايام احيطت كتابة تاريخ لبنان بعدد من الاشكاليات، اهمها:

1. هل أزمة كتابة تاريخ لبنان هي ازمة أكاديمية صرفة، ام هي ازمة محكومة بجدل ايدولوجي، مما يجعلها معضلة سياسية تطال عجز المنظومة الطائفية على اجتراح اي حل؟.
2. كيف يمكن لمجتمع متعدد ومتشظ بهوياته القاتلة ان تتوافق مجموعاته حول تفسير موحّد للأحداث؟.
3. كيف يمكن لأي مؤرخ ان يقرأ تاريخ لبنان باختزال رأي الناس عبر وضعهم في قوالب طوائفية او في معتقلات مذهبية؟.

إن اهمية كتاب: تاريخ لبنان الاجتماعي المعاصر تنبع من كونه محاولة جادة صادقة وعلمية في تجاوز ما كتب من مناظر جزئية لا تأسس لبناء الذاكرة الجماعية الداعمة للخصوصية اللبنانية. فالدكتور ضاهر لا يخاف كمؤرخ، بالاذن من مارك توين؛ ان تكلم الاموات. ولأنه متسلح بمعرفة تاريخية واسعة، التاريخ بالنسبة للدكتور ضاهر لا يعني دراسة الماضي كوحدة قياس، بل وظيفته الاساسية هو تنمية الحس الوطني الجامع عند المواطن الفرد لحماية الوطن من تكرار التجارب المأساوية مستقبلاً.

وعليه، كتاب الدكتور ضاهر هو كتاب عقلاني في مضمونه وثوروي في تطلعاته. فيه نقرأ سرديات الناس المغايرة للسرديات الطائفية. بمعنى اكثر دقة، ان وقوف ادعياء التأريخ وراء طوائفهم قد منع عنهم الاجابة عن اي لبنان نريد؟. هذا يعني ان تأريخ الجزئيات هو بمثابة حرب على الذاكرة الجماعية وتعزيزاً للنسيان ولتنمية الخوف من الماضي وكبحاً للتطلّع نحو المستقبل.

يبتعد الدكتور ضاهر عن الادلجة في كتابة تاريخ لبنان الاجتماعي المعاصر التي، برأيه، شوهت صورة لبنان الوطن، واغفلت عمداً الدراسات الرصينة التي حذرت من مخاطر الصيغة الطائفية كركيزة للنظام السياسي في لبنان المستقل.

ينطلق المؤلف من مقولة للأستاذ غسان تويني حيث يقول**: "متى يعطى لنا، متى نقدر، ان نؤرّخ عهودنا والاجيال والموائل الفكرية التي كانت دوماً تحرك السياسة، بدل ان نترك السياسة تسلب المجتمع، بل التاريخ حقائقه لتقيم لأصنام الحكم ابراجا"**. وهذا ما أكّد عليه ميكيافيلي منذ عقود بقوله: **"ارضاء العوالم بتقدير السفهاء وقمع العظماء، هذا هو مبدأ اولئك الذين يعرفون كيف يحكمون"**. ومع ذلك، يقول الدكتور ضاهر: **"شكلت الثقافة المناهضة للعصبيات القاتلة ركيزة اساسية في النهضة العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنضالية في لبنان. وحفلت بالكثير من المواقف الجزئية التي احدثت اثراً كبيراً في الصحافة ووسائل الاعلام العربية، وشكلت معلماً بارزاً في تاريخ الفكر السياسي والثقافي العربي".** (ص،14) وهنا أسارع الى القول بأن انسحاب الفكر العلماني او المدني على العامة من نقابات وقوى عاملة في منتصف سبعينيات القرن الماضي قد دفع بزعماء الطوائف الى اعلان الحرب على ذاتها ترسيخاً للفكر القبلي- الطائفي المولد للأزمات.

ولأن التحديد شرط الوضوح، فقد استندت منهجية تاريخ لبنان الاجتماعي المعاصر الى الفرضيات التالية:

1. ان التنوّع الثقافي في لبنان، الذي هو سمة من سمات المجتمعات الراقية والمتطورة، لكن القيد الطائفي هنا ليس سجلاً بل وثاق يكبل حرية اللبنانيين ويمنعهم من التغيير.
2. خصوصية الهوية اللبنانية.
3. التاريخ هو تاريخ شعب وليس تاريخ طوائف متناحرة.
4. ارتباط الاستقرار الاجتماعي بالازدهار الاقتصادي.
5. دور التأريخ الجديد في تكوين نخب ثقافية لبنانية جديدة.

هذا الكتاب يمثل محاولة جريئة في عملية تحرير التاريخ اللبناني من براثن الطبقة السياسية الفاسدة التي وفرت للبنان الكثير من الازمات، منها هذه الاخيرة التي بدأت عام 2019، والتي تطرح اليوم تساؤلات حول مصير الوطن اللبناني برمته.

لا يخلو الكتاب من المواقف الجريئة والمثبتة عبر مسيرة نضالية وثقافية مميزة. واسمحوا لي ان الخص تلك المواقف على النحو التالي:

1. صمود الشعب اللبناني هو صمود بطولي في مواجهة الحروب المتنقلة وسياسات التجويع.
2. ان الزعيم اللبناني يغلب مصالحه الشخصية على حساب المصلحة الوطنية من خلال اعتماده سياسة اقل ما يقال فيها بأنها سياسة انتهازية ترحب بكل غازٍ جديد.
3. ان التقاعس عن معاقبة الطبقة السياسية الفاسدة بات يهدد وجود لبنان.
4. ان النهج التوافقي للحكم (اي حكم الطوائف) قد غيّب المسؤولية الوطنية بتجاوزها الدستور ونحرها للقوانين، حتى بات **"الضعيف وحده يذهب الى القضاء".**
5. اثبتت العصبيات المحلية قدرتها على تفكيك قوى التغيير الديمقراطي، وعلى ترسيخ سياسة استغلال اللبنانيين واذلالهم وافقارهم.
6. انتج اتفاق الطائف منظومة قوية ودولة غنائمية رخوة.

أخيراً، على دعاة التغيير الديمقراطي ان يدركوا ان مهمتهم النضالية ليست سهلة على الاطلاق، ولكنها غير مستحيلة. ولا بدّ من البحث الدؤوب عن متنورين جدد يحملون راية النضال من اجل حماية استقلال لبنان على ايدي شباب لبنان الواعي والمندفع بقوة لتعزيز الانتماء الوطني والوحدة الوطنية. المؤرخ مسعود ضاهر هو احد هؤلاء المتنورين.

ادعوكم لقراءة كتاب "تاريخ لبنان الاجتماعي المعاصر (خارج القيد الطائفي) حتى لا تقرؤا زوانا او شوانا او حجارة طائفية.